القصص

صور من هوميروس

١٩ - حروب طروادة

بعد مصرع هكتور . . .

للأستاذ دريني خشبة

انتصر أخيل !

وعاد بجثة هكتور ليجد أمه ما تزال تسقي پتروكلوس خمرا ! وما تزال تدفع عن القتيل المسجى فوق سرير الموت أسراب الذباب ! وما تزال تذرف الدموع الغوالي !

ويهرول زعيم الميرميدون ، ويهرول معه جنوده حول جثة صديقه ثلاثاً ، ثم يقف فوق الرأس المقشح بجلال الفناء . ويقول :

« السلام عليك يا پتروكلوس فلقد ثأرت لك ! السلام عليك فأنت خيرٌ حياةً من كثيرين ممن ينعمون بالحياة ، وإن تكن تسبح في لا نهاية هيدز !

هاك غريمك هكتور سأتركه جزر السباع وكواسر الطير ، وسأضحي لك باثني عشر من خير شباب إليوم . . . . أذبحهم عند قدميك بيدي !

« إبكوا پتروكلوس يا رفاق ! . . . . »

فيبكي الميرميدون على بطل أبطالهم ، ويعولون حتى تخفق السماء بأناتهم ، وتضطرب الأرض بزفراتهم ، ويمتلئ الهواء من حولهم أسى وشجوناً !

ويقبل الهيلانيون من كل فج يهنئون ويهزون : يهنئون بقتل هكتور ، ويهزون ، ويا حرّ ما عزوا ، في پتروكلوس !

ويمتلئ بهم شاطئ الهلسپنت [1] ؛ ويأمر أخيل رجاله فيؤتى بالشاء والظباء ، وبكل مجلر جسدٍ وخنزير سمين ؛ وتؤجج النيران ، ويسطع الشواء حتى ينضج ، وتكون وليمة يقبل عليها القوم أيما اقبال ... إلا أخيل ... المنعكف وحده يذرف الدموع على پتروكلوس ...

وأمر أجاممنون بماء ساخن يغسل به أخيل ما عليه من نضح الدم وغبار المعركة ، ولكن أخيل يأبى إلا أن يظل النضح ويبقى الغبار حتى يتم تحريق پتروكلوس ، وحتى تنتهي المراسيم الدينية التي تقتضيها السماء ... ويفرضها پلوتو على موتاه !

وتفرّق الهيلانيون بعد أكل شهي وري ، ونهض الميرميدون إلى خيامهم يخلعون عدتهم ويستجمون من عناء اليوم الحافل ، ولبث أخيل وحده على الشاطئ الشاحب يرقب أواذيه الصاخبة ، ويرى إلى أعراف الموج تنتطح هنا وهناك ، وترتد وترتد حتى تغيب في لا نهاية الماء !

ثم غفا إغفاءةً فتمدد على العشب ، وأسلم جفنيه لنوم عميق ورأى ظلا حزيناً يُطيف به ولا يكاد يبين ، فتقلّب ذات اليمين وذات الشمال مما تأخذه الرؤيا به ، ولكن الشبح ما يفتأ يُهوّم ويهوم ، ويقترب ويقترب ، حتى يكون عند رأسه ، وحتى يقر النائم فما تبدو منه حركة ، ويسكن فما يتردد فيه نَفَس ، ويحسر الزائر لثامه ، فإذا هو . . پتروكلوس ! !

لقد أقبل روحه الكبير يتحدث إلى مولاه ، فيقول :

« أخيل ! أهكذا تنام ملء عينيك وتدع صديقك يهيم في مملكة الظلمات دون أن يؤذن له بعبور ستيكس الفائض بالحميم ، ليقر في عدوته الأخرى مع المؤمنين ! إنني يا صديقي سأبقى طريدا شريداً مادمت متوانياً عن تأدية الطقوس التي يتطلبها پلوتو وتفرضها السماء !

ماذا تبتغي بعد أن ثأرت لي يا أخيل ! ألا يشجيك أن أظل معذباً في هذا التيه الذي لا نهاية له ، كاسف البال مسبوء اللب ، لأنك تأبى أن تؤدي لي فرائض الآخرة !

أتحسب أنا سنلتقيان في دنياك كرة ثانية يا أخيل ، فأنت تنتظر هذا اللقاء ؟ لا ، لا ، يا صديق ؛ نحن لا نلتقي إلا هنا ! في هذه الدار الجميلة الهادئة التي لا صخب فيها ولا نجيج . . . .

(١) الدردنيل

سنلتقي هنا . . . . وسنلتقي سريعاً . . . . ولن أزعجك إذا أخبرتك بما علمته هنا ! . . . إنك ملاق حتفك تحت أسوار طروادة . . . لا تنزعج يا أخيل ، فأنت بطل ، والأبطال أمثالك لا يرهبون الموت ، والبطل الذي لا يجرع الكأس طافحة في حومة الوغى يموت مونقاً لا تشرفه . . . فاطمئن ! إنما ذكرت لك ذلك لأن لي رجيّة عندك أتمنى لو أديتها لي . . . ذلك أن توصي أن تدفن رفاتك في نفس الرمس الذي يضم رفاتي ، لنظل آخر الدهر متقاربين ، كما كنا أول الدهر متقاربين ، ولنقضي أحقاب الموت في مربع معاً ، كما قضينا شرخ الشباب في ملعب معاً . . .

إيه يا ذكريات الماضي السعيد !

أبداً لن أنسى يوم حملني مولاي الأمين أمفيداماس من نجاد أوبوس إلى بلاط پليوس ، حيث نشأت وترعرعت في نفس الكنف الذي ترعرعت فيه يا أخيل . . . وأبداً لن أنسى هذا الحنان الذي كانت تغمرني به ذيتيس ، أمك الرؤوم ، حتى اشتد ساعداي ، وسار الركبان باسمينا في كل ناد . . .

هلم يا أخيل . . . انهض يا زعيم الميرميدون . . . واذكر ما قلته لك . . . »

ويذرف أخيل عبرة غالية ، ويجيب پتروكلوس فيقول :

« پتروكلوس ! إليّ يا أعز الناس عليّ ! سأفعل كل ما تريد ، ولكن . . . اقترب . . . اقترب قليلا . . . لنسرّ من أحزاننا يا أخي ! هب لي أن أعانقك فأنا مشوق اليك ! »

وهب من نومه مذعوراً مادًّا ذراعيه لعناق پتروكلوس ، ثم ضمهما فجأة . . . . ولكن !

وا أسفاه ! . . . لقد ضم أخيل اليه الهواء . . . ! لأن الشبح العزيز قد ولى بعيدا عنه . . . هناك . . . هناك . . . في ظلمات السُّفل . . . في ديجور الدار الآخرة . . . في مملكة پلوتو الجبار . . . . حيث الأرواح والأشباح . . . . وحيث العذاب والنعيم . . . ! !

وصرخ الزعيم المفئود صرخة زلزلت عماد المعسكر ، واجتمع لها القادة مشدوهين مروّعين ، وروّعهم أكثر هذا الحديث الطويل عن الرؤيا المشجية ، فأنفذ أجاممنون الملك عصبة قوية إلى غابات الصنوبر والشاهبلوط القريبة ، فجمعت أحمالاً ثقالاً من جذوع الأيك وحطام الدوح اليابس ، وأقبلت فكومت ماجمعت كومةً واحدة عالية ؛ ثم أمر أخيل جنوده فاصطفوا حول الكومة بسُددهم وخيولهم وعرباتهم ، وأقبل فوج منهم يحمل جثمان پتروكلوس ، موارّى في شعر كثير انتزعه الفرسان من رؤوسهم حزناً على قائدهم بالأمس ؛ وكان أخيل يتعثر خلف القتيل وقد حطمه الحزن ورأزته المصيبة في أعز أصدقائه ، وغشيه من الهم ما لو كان بعضه يوضح الضحى لأحاله ليلاً من الوجد مظلماً . . . ونزع شعر رأسه هو الآخر فنطى به وجه صاحبه ، ومد ذراعيه المرتجفتين فرفع الجثمان الطاهر ، يعاونه نفر من الميرميدون ، ووضعوه فوق الكومة التي تسامت وسمقت حتى غدا ارتفاعها مائة قدم أو تزيد . وأمر أخيل فذبحت ألوف من العجول والخنازير والنعم ، ونزعت عنها شحومها جميعاً ، فوضعها بيده على الكومة من حول پتروكلوس ، ثم أشار إلى حَمَلة الزقاق فطفقوا يصبون الزيت والعسل المصفى ليزيدا في ضرام الوقود

وارتفع ضجيج بعيد وضوضاء ، فتلفت القوم ، وإذا فريق من الميرميدون يسوقون الشبان الطروادين الاثني عشر ، الذين أسرهم أخيل في ملحمة الأمس ، وقد كبلوا في الأصفاد ورهقتهم قترة مظلمة من الروع والحزن ؛ فلما شارفوا ، تقدم أخيل المتغضب الحنق ، فاستل خنجره ، وشرع يمسح بأعناقهم ويبقر بطونهم ، ويروى سنانه من قلوبهم . . . . . والبشرية البائسة تتلفت يمنة ويسرة . . . . وتتعذب . . . . وتبكي ! !

وأمر الزعيم فصفت الضحايا الأثنتي عشرة من حول الكومة

أما هكتور ! فقد حدجه أخيل بنظرة ساحرة ، وأقسم ألا يحرق جثمانه فينفذ روحه إلى هيدز ، بل يتركه ثمة حتى تنوشه الطير ، وتأكله كلاب البرية ، وتلقى عظامه في اليم ، غير كريمة ولا مرجوّة !

بيد أن منظراً عجباً خلب ألباب القوم ، وأذهلهم عن أنفسهم . . . . ذلك أنهم رأوا إلى شبح جميل أبيض ، يصب دهن الورد فيجعل منه حَنُوطاً مباركا لجثمان هكتور ، ورأوا كذلك إلى ضبابة ذات أفياء وظلال باردة تقف من فوقه فتذود عنه أشعة الشمس المحرقة حتى لا يتن أو يتعفن . . . !

ماذا ؟ ؟ ! آه ! إنها فينوس الوفية التي تصب دهن الورد فوق هكتور ، وإنه أبوللو المحزون الذي ينشر الضبابة من فوقه تحميه من الشمس وتذود عنه حرارتها ! !

وصلى أخيل صلاة قصيرة ، ونذر لآلهة الريح ، إذا هي أقبلت تروّح على النيران حتى تذكو ، أن يذبح لها ويقرب لها القرابين ! وما كاد يفرغ من صلاته ، حتى تقلب البحر واضطرب ،

ومار اليم واصطخب ، وثارت العاصفة الهوجاء فى بطن الدأماء وأقبل زفيروس وإخوته آلهة الريح فحاصروا الكومة ، وما هى إلا لحظات حتى كانت ضراما فى ضرام ، ولظى يتأجج فى لظى

وسكنت اللهب ، وخفت أوار النار ، وتقدم أخيل وحملة الزقاق فصبوا على الجمر خمرا حتى خبا

وتقدم نفر فرفعوا رفات پتروكلوس وهم يبكون ، وأقدم أخيل فوضعها بيديه فى إران من الذهب ، وأشار الى بعض أصحابه فحفروا فى الأرض حفرة كبيرة عميقة ، فأسرع هو فوضع الإران فيها ، بين أنين الجند ، وبكاء القادة ، وزلزلة الأرض والسماء ... !!

وهيل التراب على الميت ، وعمل الكل فى ذلك حتى كانت كومة عالية من الردم ، ستظل آخر الدهر رمز البطولة الخالدة ، وتحية الدار الآخرة لهذه الدنيا المشحونة بالأشجان ! !

* * *

وكان من دأب الهيلانيين إذا مات أحد أبطالهم أن يحرقوه كما حرقوا پتروكلوس ، ثم تتلو ذلك حفلة ألعاب يشترك فيها أبطالهم ، ويساهم فيها الجندى الصغير إلى جانب القائد العظيم ، وقد يفوز عليه فينال الجائزة من دونه ، وكانوا يعدون هذه الحفلة تتمة للجناز لا يكمل إلا بها ؛ فلما انتهوا من إقامة الشعائر الدينية للشهيد الكبير نهض أخيل فأعلن القوم ببدء حفلة الألعاب ، ثم دعا للمشاركة فى سباق العربات الحربية ، وعدد الجوائز فذكر أن للفائز الأول غانية من أبرع غانيات طروادة جمالا ، وأوفرهن حسناً ، وأنبههن فى القيام بشؤون المنزل ، ثم آنية عظيمة من الذهب الخالص ، غالية الثمن ، عالية القيمة ، لا تقدر بمال لما بذل فى زخرفتها ونقشها من فن ، وما أضفى عليها من عبقرية . وأن للفائز الثانى مُهرةً صافناً تسبق الريح وتلحق البرق ؛ وللثالث كوباً من الفضة الناصعة ، عظيم القدر ، غالى الثمن . وللرابع بدرتين من الذهب الأبريز . وللخامس إبريقاً فضياً للخمر ، وكأسين للشراب . . . .

واشترك فى هذا السباق لهاذم أبطال الأغريق ، وصناديدهم الصيد ؛ وكان أول من نزل إلى الحلبة يوميلوس الملك ابن أدميتوس العظيم ، وتلاه ديوميد الحلاحل ابن تيديوس ؛ ثم منالايوس سليل السماء ، وفرع الآلهة بن أتريوس الكبير ؛ وكان رابعهم أنتيلوخوس المشهور بن نسطور الحكيم ، الذى أخذ أعين القوم بقامته السامقة ، وعوده اللدن ، وقوامه الأهيف السمهرى المشوق ، والذى تقدم اليه أبوه فقبّله فى حر الجبين ، وزوده بنصائحه الغوالى ؛ وكان خامسهم مريونيس الهائل ، صاحب الذكر البعيد والشأو الرفيع فى كل مثار نقع وفى كل ميدان

وكان على الفارس العظيم فونيكس أن يلاحظ السباق ، فكان فى مركزه هذا حكما عدلاً وقاضياً ماهراً . . .

وأعطى أخيل الأشارة . . . فانطلقت الجياد تزلزل الأرض ، وتثير عجاجة قاتمة من ثرى الميدان ، وتضرب الصخر بحوافرها فينقدح الشرر ، ويميد جانب الجبل ، وتتصل أبصار القوم بالريح الذى يتعثر فى أدبار الخيل ، ويتحسس كل منهم قلبه ، متمنياً قصب السبق لصاحبه الذى هو من شيعته . . . ثم . . . تتدخل الآلهة فى هذا الهواء البرىء فتثير دفة القادير ، وتتحمس مينرفا للبطل العظيم ديوميد ، حينما ينزع أبوللو السوط من يده ويلقى به إلى الأرض ، فتعيده إليه ؛ وتلحظ أن أبوللو يصنع هذا ليظفر يوميلوس ويفوز بالسبق ، فتذهب من فورها إلى ابن أدميتوس وتنزع إحدى عجلتى عربته ، فيهوى البطل ويوشك رأسه أن يتحطم على الجلاميد المتراكمة على جانبى الطريق ...

وتعدو الخيل ...

وتخفق قلوب القوم ... ثم ينظرون فيرون إلى ديوميد قد أنهى الشوط ، ونزل من عربته فصافح فونيكس ، واستحق بذلك الجائزة الأولى

وتلاه أنتيلوخوس ، ثم منالايوس الملك ، ثم مريونيس ، وكان أبطأهم

وسكن القوم قليلاً ، وإذا هم يبصرون يوميلوس المقدام يسوق جياده ، وخلفها عربته التى حطمتها مينرفا ، فيثير مرآه قهقهة عالية وصخباً ؛ لا يقطعهما إلا أخيل بصيحة داوية تعيد إلى الملأ وقارهم ، ويقضى ليوميلوس بالجائزة الرابعة « لأنه لولا الحظ العاثر كان صاحب الجائزة الأولى ! ! »

واشرأبت الأعناق حين أعلن أخيل عن دورة الملاكمة

وشارك فيها من الأبطال إپيوس بن پنوپيوس ؛ فتى مفتول السواعد مكتنز العضل ، رحب الصدر ، له قبضتان كأنهما حراشف جذور بارزة من جذع شجرة ، ألقت بها الريح فى يوم عاصف ، ونهض إلى جانبه شاب قوى بادى البأس ، لم يلبث القوم أن عرفوا فيه يوريالوس بن مسيتوس ، الذى طالما شارك فى أولمبيات الملك أوديبوس وكان أبداً فتاها وفارس حلبتها

وأعطيت الأشارة فانقض الأسد على الأسد ، وارتطم الجبل

بالجبل ، ولبث البطلان يكيل أحدهما للآخر لكمات كانت تقشعر لها أبدان الآلهة ، وتتناض من هولها أفئدة الرجال ، ثم لاحت فرصة للبطل إبيوس كال فيها لخصمه لكمة فى ذقنه (١) ألقته فوق أديم الأرض بين هتاف الجند وضجيج القادة ، وبذا استحق إبيوس الجائزة الأولى ، وهى بغل أشهب مسرج ، فى شدقيه لجام من الحديد ، يتصل به عنان من الفضة . أما يوريالوس فقد أفاق من اللكمة القاسية لينال كأسين جميلتين أعدتا للفائز الثانى ... !

وأرهفت الأسماع حين نهض أخيل يعلن عن دورة المصارعة التى لم يجرؤ أحد أن يتقدم إليها حتى أوشك زعيم الميرميدون أن يلغيها لو لم ينهض أوليسيز ويتبعه أجاكس متثاقلين ! !

وأهطعت الرقاب ذاهلة نحو الزعيمين الهولتين ، وشخصت الأبصار ترى إلى الجبل يأخذ بتلاليب الجبل ، والبحر ذى العباب يصاول البحر ذا العباب ، والشهاب الراصد يندق على الشهاب الراصد ؛ لا هذا ينال فرصة من ذاك ، ولا ذاك يرى ثغرة ينفذ منها إلى هذا ، والقلوب أثناء ذلك تخفق وتخفق ، والقشعريرة الباردة تشيع فى أصلاب هؤلاء وهؤلاء ، كل يتمنى أن يفوز رجله . . . . . حتى ثارت عجاجة حول البطلين انجلت عنهما صريعين فوق الأرض ، لم ينل أحدهما من الآخر !! فكان القضاء العادل من السماء !

وحاولا أن يعودا إلى صراعهما الأول ، فحال بينهما أخيل . . . لأن الدورة كانت لا تنتهى إذن . . . فكان بحسبهما أن ينالا جائزتين متساويتين ! !

وبدأ سباق العدائين ، واشترك فيه أوليسيز وأجاكس أيضاً ، ثم أنتيلوخوس الذى استطاع أن يفوز بالجائزة الأولى ، لما كان يبدو على منافسيه من نصب ، من جراء صراعهما السابق .

وتبع ذلك سباق المبارزة ، وشارك فيه أجاكس أيضاً ثم ديوميد العظيم ، الذى استطاع بعد لأى أن يجرح خصمه فى عنقه ، فينبثق الدم من الجرح ، فينال الحزام الفضى بذلك !

ثم كان حمل الأثقال وهو سباق محبوب من الاغريق كثيراً ، وقد شارك فيه بوليبوتيس وإبيوس وليونتيوس . . . ثم . . . أجاكس . . . ! وفاز أولهم بالجائزة الأولى . . .

وتلا ذلك سباق الرماية ، واشترك فيه البطلان تيوسير ومريونيس ، وفاز الأخير بأسنى الجائزتين للبراعة الفائقة التى أبداها فى إصابة الغرض (وكان حمامة تنطلق وتنطلق . . . حتى تكون خلف السحب . . . !)

وكان السباق . . . وها سباق إصابة الغرض بقذف الرمح ، وقد تقدم إليه قائد الحملة العظيم . . . أجاكس ممنون الملك ... ثم ... مريونيس الشجاع وأحد أتباع الملك إيدومنيوس . . . . . وقد هال أخيل أن ينافس أحد قائد الحملة ، فتقدم إليه معترفاً بتفوقه على الجميع فى كل شىء ، وقدم له الجائزة الأولى . . . ثم قدم الرمح لمريونيس ... وكانت مجاملة طيبة من أخيل تقبلها الجميع بثغور باسمة

(لها بقية) دريني خشبة

(١) Upper — cut ???

لجنة التأليف والترجمة والنشر

جزيرة العرب

في

القرن العشرين

أتمت لجنة التأليف طبع هذا الكتاب للأستاذ حافظ وهبه الوزير المفوض للمملكة السعودية بلندن

وهو يبحث فى : طبيعة جزيرة العرب وحالتها الاجتماعية الحاضرة . دعوة الوهابيين وتاريخهم ومبادئهم . الحكومات العربية التى تعاقبت على الجزيرة فى العصور الحديثة . الثورة العربية . آل سعود وتاريخهم وأعمالهم . مؤتمرات الصلح والمعاهدات . الوثائق الرسمية التى دارت بين حكومة الأشراف وآل سعود وبريطانيا . الخ

وقد حوى الكتاب كثيراً من المعلومات الجديدة الشيقة ، والوثائق الرسمية التى لم تعرف قبل — هذا إلى خرط وصور جغرافية واجتماعية توضح ما جاء فى الكتاب

وقد طبع طبعاً جميلاً على ورق صقيل ، ويقع فى نحو ٤٥٠ صفحة من القطع الكبير . وثمنه خمسة وعشرون قرشاً عدا أجرة البريد

« ويطلب الكتاب من لجنة التأليف ومن المكاتب الشهيرة »